المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دائرة الشؤون الثقافية والنشر ـ
الجمهورية العراقية
المجلد الثاني عشر ـ العدد الثالث ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م

٣

WWW.ATTAWEEL.COM

أسماء المدن محمد

أسلوب الالتفات بين التراث والمعاصرة

بقلم الدكتور

محمد بركات أبو علي

كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية وآدابها

الجامعة الأردنية

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ ١ ـ

اغلب الذين عرضوا الى (الالتفات) من القدامى والمحدثين ، لم يلفتهم المعنى اللغوي بوجوهه المتنوعة ، حتى يعولوا عليه في تخريج الأمثلة والشواهد ، وربطها بالقيم اللغوية ـ وان كانت هذه المعاني اللغوية قائمة في اذهانهم ـ بل اكتفوا بأن وصفوا المعنى الاصطلاحي ، بقولهم ، وحقيقة (الالتفات) مأخوذ من التفات الانسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا ، وتارة كذا ، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة ؛ لانه ينتقل فيه من صيغة الى صيغة ، كانتقال من خطاب حاضر الى غائب ، او من خطاب غائب الى حاضر ، او من فعل ماض الى مستقبل ، او من مستقبل الى ماض ، او غير ذلك(١) .

ومن القدامى من قصر الحديث في الالتفات على الشواهد المصنوعة من لغة العرب ، مع الاشارة الى آية او آيتين في القرآن الكريم(٢) ومنهم من افرد هذا اللون لآيات القرآن الكريم من غير ان يذكر امثلة من لغة العرب(٣) .

وبعض المشتغلين بالبلاغة العربية ، نظروا نظرة عامة ، اذ جعلوا علم البديع حسنا عرضيا وزائدا في البلاغة العربية(٤) ، والالتفات نوع من هذا الحسن العرضي ، ولهذا ، لم يعيروه اهمية ، ولم يبرزوا له قيمة .

ومن المختصين بالدراسات البلاغية ، من اعتبروا علم البديع من الحسن الذاتي ليعتبروا الالتفات من هذا العلم ، باعتباره جزءا من البديع(٥) .

---

(١) ضياءالدين بن الاثير (ـ ٦٢٧ هـ) ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ـ ٢ : ١٧ ـ ١٧١ ، تحقيق : د . احمد الحوفي و د. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها بمصر ، ط ١ ، سنة ١٩٦٠ م .

(٢) ابن ابي الاصبع المصري (ـ ٦٥٤ هـ) ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان اعجاز القرآن ـ : ١٢٣ـ١٢٦ ، تقديم وتحقيق : د . حنفي محمد شرف ، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، بالقاهرة ، سنة ١٣٨٣ هـ .

(٣) بدرالدين محمد بن عبدالله الزركشي (ـ ٧٩٤ هـ) ـ البرهان في علوم القرآن ـ ٣ : ٢١٤ وما بعدها ، عيسى البابي الحلبي وشركاه بالقاهرة ، ط ٢ ، انظر : ابن ابي الاصبع المصري ـ بديع القرآن ـ ٤٢ـ٤٥ ، تحقيق : د . حنفي محمد شرف ، دار نهضة مصر بالفجالة ـ ـ القاهرة ـ ط٢ . وانظر : جلال‌الدين عبدالرحمن السيوطي (ـ ٩١١ هـ) ، ـ الاتقان في علوم القرآن ـ ٢ : ٢٨٩ـ٢٩٦ ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٧٥م . وانظر : ضياءالدين بن الاثير ـ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ـ ٩٨ـ ١٢٢ ، تحقيق : د . مصطفى جواد ، و د. جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، سنة ١٩٥٦ م .

(٤) جلال‌الدين محمد بن عبدالرحمن القزويني (الخطيب) (ـ ٧٣٩ هـ) ـ التلخيص في علوم البلاغة ـ ٣٤٧ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ١ ، سنة ١٩٠٤ م .

(٥) عبدالقاهر الجرجاني (ـ٤٧١هـ) ـ اسرار البلاغة ـ٤ـ١٧ تصحيح : الشيخ محمد عبده ، تعليق : محمد رشيدرضا دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٨ م .

WWW.ATTAWEEL.COM

لهذا وذاك نلاحظ ان حديث الالتفات في كتب البلاغة العربية ، يدور حول التعريف ، والفائدة ، والانواع ، ويختلف بعض البلاغيين في ذكر الاثر النفسي للالتفات وصلته بالذوق والنظم ، ولم يلتفت الى القيمة النقدية ، وبعضهم يقدم الامثلة من غير تفسير للقيمة البلاغية ، وبعضهم يزيد في انواع الالتفات ، وهو ما اسموه بالالتفات الغريب(٦) ، وبعضهم يضيف انواعا مقاربة للالتفات(٧) .

ونلاحظ ان بعض البلاغيين قد خطا الآخر في استدراكه على غيره في هذا اللون البلاغي(٨) ، وبعضهم قد ضم الالتفات الى علم المعاني(٩) ، وبعضهم قد ضمه الى علم البديع .

من هذه الملاحظ التي تجمعت حول هذا اللون البلاغي تبدى لنا ، ان ندرسه من خلال اراء القدماء والمحدثين ، وندلي برأينا فيه . ونشير الى الصلة بين الالتفات وقيمة نقدية حديثة تسمى بـ (المفارقة(١٠)) وهذا الاصطلاح من مميزات الشعر الجيد ، ووسيلة للكشف عن صدق العاطفة ، واغلب ما يكون في الشعر الجيد ، وعند عرضنا لموضوع الالتفات عند القدامى والمحدثين من العرب ، وجدناهم يديرون امثلته حول الشعر الفصيح ، والقرآن الكريم ، وهنا توقفنا ، لنرصد ظاهرة ، تتصل بالاعجاز القرآني ، اذ يكثر الالتفات في القرآن الكريم ، ولاحظنا من خلال الآيات الكثيرة ملاحظتين :ـ

اولاهما : ان القرآن الكريم ليس بالشعر ، ويضم خصائص الشعر الجيد ، وهذه ميزة من ميزات اعجازه البياني .

ثانيتهما : ان الآيات التي ورد فيها الالتفات؛ ايات مكية ، تتصف بشدة العاطفة ، وقوة الوجد ، والايات المدنية التي تضمنت الالتفات ، كانت تسير في مميزات السور المكية ، خلافا لمميزات السور المدنية من تنظيم المجتمع ، وسن الشرايع ، وهذا قادنا الى اثبات خصائص كل من السور المكية والمدنية . وبهذا الموقف نكون قد اضفنا جديدا لموضوع الالتفات وقيمته في البلاغة العربية ، ونقلناه من الشكلية او الحسن العرضي الى الحسن الذاتي ، وربطه بالمعنى ، وتبيان العلاقات بين الاسباب والغايات ، وبين الدواعي والمقاصد ، ثم نبهنا الى وجهة قد اهتم بها قدماء البلاغيين ، وهي جعل البلاغة في خدمة القرآن الكريم(١١) .

ـ ٢ ـ

ولما كان الالتفات ضربا من فنون البلاغة ، له اسلوبه ، وله جماله ، فانه ليس من الدقة ان يبقى مترددا ، فيكون في علم المعاني اذا اقتضى المقام فائدته ، ويكون في علم البديع من جهة كونه شيئا طريفا مستبدعا ، وانما يقرر له باب كما افرد له ضياء الدين ابن الاثير وفصل القول فيه ، ولم ينظر اليه هذه النظرة الشكلية التي تفقده قيمته وتذهب برونقه وجماله في الكلام(١٢) .

كأن صاحب هذا النص قد احس بهضم هذا الفن من فنون البلاغة وهو الالتفات ، واحس ان عرضه الشكلي دون ابراز قيمته المعنوية والنفسية التي تؤدي الى جمال الاساليب ، وخدمة اغراض الكلام يحتاج الى معاودة نظر ، وتجديد الكتابة فيه . ويهيب بالدارسين ان يفردوا للالتفات وقيمته في الاساليب ، بابا خاصا ، كما فعل ضياء الدين بن الاثير (ـ ٦٢٦هـ) وبعد الاطلاع على ما كتب ابن الاثير في كتابيه (المثل السائر والجامع الصحيح) عن الالتفات ، لاحظنا انه لم يعرض الى تفصيلات اللغويين ، ولم يربط المعنى اللغوي بالمعنى الاصطلاحي والنفسي في الاستخدام من الوجهة البلاغية .

ثم لاحظنا ان يحيى بن حمزة العلوي

---

(٦) ابن ابي الاصبع المصري ـ بديع القرآن ـ ٤٥ .

(٧) جلال الدين السيوطي ـ الاتقان : ٢ : ٢٩٤ وما بعدها

(٨) يحيى بن حمزة العلوي (ـ٧٤٩هـ) الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ـ ٢ : ١٣٢ ، مطبعة المقتطف بمصر ، سنة ١٩١٤ م .

(٩) د احمد مطلوب ـ البلاغة عند السكاكي ـ١٣٦ ،منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، سنة ١٩٦٤ م .

(١٠) د نصرت عبدالرحمن ـ الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث ٢٠٠ ، ٢٠١ ، مكتبة الاقصى ، عمان ، سنة ١٩٧٦ م .

(١١) الحسن بن عبدالله العسكري (ـ ٣٩٥ هـ) ـ كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ـ ٧ ، تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، عيسى البابي الحلبي بالقاهرة ، ط٢ .

(١٢) د . احمد مطلوب ـ البلاغة عند السكاكي ـ ١٢٨ ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد ، سنة ١٩٦٤ م . وانظر للدكتور احمد مطلوب : اساليب بلاغية . ص ٢٦٩ ـ ٢٨٧ ، وكالة المطبوعات الكويت ١٩٨٠ م ، وانظر : مصطلحات بلاغية . د. احمد مطلوب ص ٨٤ ، ٨٨ ، ٩١ بغداد ١٩٧٢ .

(ــ ٧٤٩هـ) في كتابه (الطراز(١٢)) قد لاحق ابن الاثير وناقشه طويلا ، في نقده للزمخشري ، لذلك لم تخل دراسة ابن الاثير من نقدات ، ولهذا نرى ان ما كتبه ابن الاثير يحتاج الى اعادة نظر من هذه الزاوية ، ومن زاوية اخرى ، ادعى ابن الاثير انه مجدد وغير مسبوق في حديثه . وهذه سمة تغلب على كتابة ابن الاثير ، اذ يعتبر نفسه فذا في الاستقصاء لايدانيه فيه غيره في التاليف ،وفي الوقت الذي يعترف فيه بانه اطلع على الموازنة للامدي (ــ ٣٧١هـ) وسرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ــ ٤٦٦هـ) ، يرى انهما لم يستوعبا الغرض ولم يأتيا على المطلوب(١٤) ؛ وان كلا الكتابين قد اهملا من هذا العلم ابوابا وربما ذكرا في بعض المواضع قشورا وتركا لبابا(١٥) .

في ضوء ما تقدم نجد ان الموضوعية تدفعنا الى تجلية اصطلاح الالتفات عند الذين تقدموا ابن الاثير ، من مثل الاصمعي (ــ ٢١٦هـ) ، وقدامة (ــ ٣٣٧هـ) ؛ وابن المعتز (ــ ٢٩٦هـ) ، وابن رشيق (ــ ٤٦٣هـ) ، وابي هلال العسكري (ــ ٣٩٥هـ) ، ومن جاء بعده من مثل : العلوي (ــ ٧٤٩هـ) ، وابن ابي الاصبع المصري (ــ ٦٥٤هـ) وغيرهم ، مع ابداء الملاحظات التي اتفق حولها هؤلاء وتجلية الراي والمناقشة ، كلما سمحت الدراسة بذلك ، من غير التواء في القصد ، او تغيير في الاسلوب .

وامر آخر يضم لما تقدم يجعلنا نهتم بهذا الموضوع (الالتفات) هو ما ذكره ابو يعقوب المغربي في تفسيره سرّ ضم الالتفات الى علم المعاني مرة والى المحسنات مرة اخرى ، اذ يقول : فان قلت لاي وجه خصص تسميته بعلماء المعاني مع ان عدّ الالتفات من البديع اقرب لان حاصل ما فيه على ما يأتي انه يفيد الكلام ظرافة وحسن تطرية فيصغي اليه لظرافته وابتداعه ، ولا يكون الكلام به مطابقا لمقتضى الحال ، فلا يكون من علم المعاني فضلا عن كونه يختص بهم فيسمونه به دون اهل البديع ؛ قلت : اما كونه في الاحوال التي تذكر في علم المعاني فصحيح ، كما اذا اختص المقام فائدته من طلب مزيد الاصغاء لكون الكلام سؤالا او مدحا او اقامة حجة ؛ او غير ذلك ، فهو من هذا الوجه من علم المعاني ؛ ومن جهة كونه شيئا ظريفا مبتدعا يكون من علم البديع . وكثيرا ما يوجد في المعاني مثل هذا ؛ فليفهم ، واما تخصيص علماء المعاني بالتسمية فلا حجر فيه والله اعلم(١٦) .

يبدو من هذا القول ان ابا يعقوب المغربي قد فسّر قول البلاغيين في الالتفات ، وكانهم من الناحية التطبيقية في بعض المواضيع البلاغية لا يستطيعون ان يفصلوا بين علوم البلاغة وهذا ما لاحظناه على بعض دراسة السكاكي للبلاغة العربية(١٧) .

حفظت لنا المعاجم اللغوية(١٨) ، معنى المادة (لفت) ، وكانت تدور حول المعاني الآتية ؛ الصرف والقبض والفتل واللي والاكل والنظر والمزج والخلط . واتخذت هذه المعاني اللغوية ، وجهات شتى في البلاغة العربية اذ اتصلت بالجهد والقوة ، وبالسلب والايجاب ، وبالاستجابة النفسية ، والسلوك الانساني .

والغرض الموجب لاستعمال الالتفات من الكلام ، انه لا يجرى على وتيرة واحدة (وانما هو مقصور على العناية بالمقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر ، وانما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه(١٩)) ، ولهذا لا تخرج صورة الالتفات عن الناحية الشكلية والمادة اللغوية ؛ الا اذا ارتبطت بغاية وغرض مقصود .

وهذه الغايات والمقاصد لا تتاتى الا في اثناء الاستخدام الجملي ، والموضع الذي ترد عليه في التركيب والنظم في اساليب الكلام ، ولتوضيح ذلك نورد الامثلة التي هي بمثابة الدليل على ما نقول : (لفت الشيء لفتا) اي لواه على غير جهته ،

(١٢) الطراز ٢ : ١٣٣ ــ ١٣٥ .
(١٤) د. ابراهيم ابو الخشب ــ الادب والبلاغة ــ ٢٤١ ، مطبعة المعرفة بالقاهرة ، ط ٢ ، سنة ١٩٥٩م .
(١٥) المثل السائر : ١ : ٣٦ .
(١٦) ابويعقوب المغربي (ــ ١١١٠هـ)ــ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ــ ضمن شروح التلخيص ، ١ : ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، وشركاه بمصر ، سنة ١٩٣٧ م .
(١٧) د محمد بركات ابو علي ــ الصورة البلاغية عند بهاء الدين السبكي ــ ١٦٢ ، مكتبة الرسالة ، عمان ، سنة ١٩٧٩ م.
(١٨) جمال الدين محمد بن منظور (ــ ٧١١هـ) ــ لسان العرب ــ مادة لفت دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ،بيروت سنة ١٩٥٥ م .
(١٩) المثل السائر : ٢ : ١٧٣ .

وهذا التوجيه يستلزم من القائم به جهدا وقوة ، اذ يصرفه الى ذات اليمين والشمال ، واللام والفاء اصل صحيح يدل على تلوّي الشيء على شيء(٢٠).

و (لفت فلانا عن رأيه) صرفه ، وفي الصرف معنى الجهد والمكابدة ، و (لفت اللحاء عن الشجر لفتا) قشره ، و (لفت الرداء على عنقه) بمعنى عطفه ، وهذه الامثلة تحتاج الى جهد من صاحبها حتى يتم له (اللفت) حسبما يريد .

و (اللفت) لي الشيء عن جهته ، كما تقبض على عنق انسان فتلفته ، وهنا بمعنى القبض الذي يستوجب من صاحبه المعاناة والمجاهدة ، وبمعنى (اللفت) القتل الذي بمعنى اللي ، وسميت (العصيدة) لفيتة لانها تلفت اي تفتل وتلوى ، وهي ضرب من الطبخ تتطلب المزج والخلط .

جميع المعاني اللغوية المتقدمة ، تحمل الجهد والقوة والمعاناة ، وشدة الاعتصار والمكابدة ، حتى ينتقل الانسان او الحيوان ، بمفهومه ومراده من ناحية الى اخرى ، ويحقق ما يبغي ، ويؤكد رغبته فيما يريد ، ويترجم عما يضطرم في نفسه من مشاعر ووجدانات .

— ٤ —

وعندما ناتي الى معنى المادة (لفت) واستخدامها في البلاغة العربية على سبيل الحقيقة او المجاز ، نراها تاخذ عدة صور ، منها :

١ ــ في الحدث : تقول : لفت الريش على السهم ، اي وضعه كيفما اتفق من غير تنظيم ، اي وضعاً غير ملائم ، وغير متناسق ، وتقول : لفت الراعي الماشية ، اي ضربها ، لا يبالي ايها اصاب .

٢ ــ في الكلام : تقول : لفت الكلام ، اي ارسله على عواهنه ، لا يهتم كيف كان ، وعلى غير نسق وانسجام ، وفلان يلفت الكلام لفتا ، اي : يرسله ، ولا يبالي كيف جاء ، والمعنى انه يقرأه من غير روية ولا تبصر ولا تعمد للمأمورية ، غير مبال بمتلوه كيف جاء ، وهذا صورة للمعاني النفسية المعتملة في النفس ، تترجم بصور الكلام وتركيبه الملفوظ .

٣ ــ في الرجال : ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يلفت في الكلام ، كما تلفت البقرة الخلى بلسانها ، اي الذي يلوي الكلام من الطريقة المستقيمة ، واللفت (بتحريك اللام الثانية والفاء التي تليها بالفتح) في الانسان ، بمعنى العسر ، واللفات في الرجل ، اي الاحمق العسر الخلق .

٤ ــ في النساء : يقال : امراة نفوت ، اي النمامة ، وهي من النساء اللواتي تثبت عينها في موضع واحد . وتكثر من التلفت ، وقيل : هي التي يموت زوجها او يطلقها ، ويدع عليها صبيانا ، فهي تكثر التلفت الى صبيانها ، وقيل : هي انثى لها زوج ، ولها ولد من غيره ، تلفت الى ولدها .

اغلب هذه المعاني تحمل القيمة السلبية من المادة (لفت) ، اما المعاني الايجابية ، لهذه المادة (لفت) ، فتتبدى في الامثلة الاتية :

١ ــ يقول الله تعالى في محكم كتابه : (ولا يلتفت منكم احد الا امراتك(٢١)) وهذا امر بترك الالتفات ، لئلا يرى لوط عظيم ما ينزل من العذاب بقومه . روى ان لوطا عليه السلام اخرج مع ما اخرج امراته ، وامره الله تعالى الا يلتفت منهم احد الا هي فلما سمعت هدة العذاب ، التفتت وقالت: يا قوماه ، فادركها حجر فقتلها(٢٢) ، وفي عدم التفات لوط عليه السلام وجماعته نجاة من العذاب ، ورحمة من الله تعالى .

٢ ــ في الحديث في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم : فاذا التفت التفت جميعا ، اراد انه لا يسارق النظر ، اي اذا التفت يلتفت الى الامر الذي يلتفت اليه الجميع ، وغير محظور الرؤية اليه ، من عامة الرائين ، وقيل : لا يلوى عنقه يمنة ويسرة اذا نظر الى شيء . وفيه خير وفائدة ودرس وسلوك .

— ٥ —

من المعاني التي حملتها المادة (لفت) ، الاستجابة النفسية لما يدور في النفس الانسانية ، ويضطرم في القلب ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية

---

(٢٠) احمد بن فارس (ـ٣٩٥هـ) ــ معجم مقاييس اللغة ــ باب اللام وما يصدره في المضاعف والمطابق ، تحقيق: عبدالسلام هارون ،شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ، ط٢ ، ١٩٧٢ م .

(٢١) سورة هود ، من الاية : ٨١ .

(٢٢) محمود الزمخشري (ـ٥٣٨هـ) ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل ــ ١ : ٢٨٤ ،شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ، سنة ١٩٦٦ م .

لكلام الملا على لسان موسى عليه السلام (أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا) .

ومعنى لتلفتنا لتصرفنا ، واللفت والفتل اخوان ، ومطاوعهما الالتفات والانفتال عما وجدنا عليه آباءنا ، ويعنون بذلك عبادة الاصنام(٢٤) وهي متمكنة في نفوسهم ، ولا يستسلمون لاي رعدة ضد ما يعتقدون ، وخلاف ما ورثوا من ابائهم من معتقد ، قد رسخ في نفوسهم ، و (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم(٢٥)) .

وفي معنى التلفت المنازعة النفسية ، والمغالبة الداخلية التي ما بعدها مغالبة .

ومن معاني التلفت ، المباوحة النفسية للسلوك الانساني ، ومن ذلك حديث الرسول العظيم اذ ورد فيه : لا تتزوجن لفوتا ، وهي التي لها ولد من زوج آخر ، فهي لا تزال تلتفت اليه ، وتشتغل به عن الزوج . وفي حديث الحجاج، انه قال لامرائه : انك لكتون ـ لزوق ـ لفوت ، اي كثيرة التلفت الى الاشياء ، وقال ثعلب : اللفوت هي التي عينها لا تثبت في موضع واحد ، انما همها ان تغفل عنها فتغمز غيرك . وقيل : هي التي فيها التواء وانقباض .

يبدو مما تقدم ان في السلوك استجابة لنوازع نفسية داخلية وفي كل حديث يؤدي الى سلوك لابد له من مثير ، ثم استجابة لذلك المثير ، وهذا المثير ، وتلك الاستجابة له مرتبطة بالنفس الانسانية وبالسلوك الانساني ، وهذا جميعه حملته المادة (لفت) .

ولفت وجهه عن القوم ، بمعنى تركهم ، وانصرف عنهم مغاضبا ، وهذا التصرف ترجمة عما في النفس من غضب وعدم قبول لما وجد عند القوم .

من الحديث السابق في مفهوم الالتفات من الناحية اللغوية والاصطلاحية والنفسية والسلوكية ، يتضح لنا ان المادة (لفت) ترتبط بالمعاني التي استخدمها البلاغيون .

ونحن بهذا نلمح الى اتكاء البلاغيين على نظرات اللغويين في بناء البلاغة العربية ، ونومىء الى الطور الاول من اطوار البلاغة العربية ، اذ أن كثيرا من مؤرخي البلاغة يعتبرون دور التمهيد البلاغة العربية في دائرة اللغويين .

ولتبيان ذلك نورد صورا لتدرج هذا المصطلح البلاغي ، عند ابرز الذين عرضوا اليه من البلاغيين العرب .

ـ ٦ ـ

عبدالله بن المعتز (ـ ٢٩٦هـ) :

تحدث ابن المعتز في كتابه « البديع(٢٦) » عن خمسة من انواعه ، وهي : الاستعارة والتجنيس والمطابقة(٢٧) ، ورد اعجاز الكلام على ما تقدمها(٢٨) ، والمذهب الكلامي(٢٩) ، ثم ختم حديثه قائلا : (لا ينبغي للعالم ان يدعي الاحاطة بها حتى يتبرا من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ، واحببنا لذلك ان تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ويعلم الناظر انا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام ، ولا ضيق في المعرفة ، فمن احب ان يقتدي بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن اضاف من هذه المحاسن او غيرها شيئا الى البديع ، ولم يأت غير راينا فله اختياره(٣٠)) نلاحظ من حديث ابن المعتز انه اظهر ضم انواع البديع الخمسة ، ومنها ما يتصل بعلم البيان ، مثل : الاستعارة ، ومنها ما ينضم الى علم البديع ، مثل : التجنيس ، والمطابقة، ويؤكد ابن المعتز في هذه النظرة تراسل علوم البلاغة مع بعضها البعض ، وقد سماها جميعا بالبديع ، وسار على هذا النهج في العصر الحديث الاستاذ حنفي شرف ، اذ الف كتابا باسم « الصور البديعية بين النظرية والتطبيق(٣١) » ، وذكر ابن المعتز بعد ذلك بابا بعنوان « الالتفات » وعرفه قائلا : (وهو انصراف المتكلم عن المخاطبة الى الاخبار ، وعن الاخبار الى المخاطبة ، وما يشبه ذلك(٣٢)) ،

---

(٢٢) سورة يونس ، من الاية : ٧٨ .
(٢٤) الكشاف : ٢ : ٢٤٧ .
(٢٥) سورة البقرة من الاية : ٧ .

(٢٦) عبدالله بن المعتز (ـ٢٩٦هـ) ـ البديع ـ اعتنى بنشره المستشرق الفاطيوس كراتشقوفسكي ـ منشورات دار الحكمة ، حلبوني ، دمشق (أ) .
(٢٧) المصدر السابق : ٢ .
(٢٨) المصدر نفسه : ٤٧ .
(٢٩) المصدر نفسه : ٥٢ .
(٣٠) المصدر نفسه : ٥٨ .
(٣١) د حنفي محمد شرف ـ الصور البديعية بين النظرية والتطبيق ـ جزآن ، مكتبة الشباب بالقاهرة ، ط١ ، سنة ١٩٦٦ م .
(٣٢) البديع : ٥٨ .

ومثاله قول الطائي ابي تمام ، وهو الانتقال من المخاطب الى المتكلم :

وانجدتم من بعد اتهام داركم
فيا دمع انجدني على ساكني نجد(٢٢)

ثم يأتي ببيت نجرير ، وهو الانتقال من المتكلم الى الغائب .

طرب الحمام بذى الاراك فشاقني
لا زلت في غلل وايك ناضر(٢٤)

ويضم ابن المعتز الالتفات الى المعاني ، اذ يقول : (ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه الى معنى آخر ، قال جلّ ثناؤه(٢٥) ، (حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة) .

نلاحظ مما تقدم ان ابن المعتز قد تحدث عن باب الالتفات ضمن حديثه عن البديع ، ويعتبر قيمته البلاغية في المعنى الذي يحمله ، وانصرافه من جهة الى اخرى ، ولهذا ، فانه اذا لم يحمل الالتفات معنى جديدا في دورانه من جهة الى اخرى ، فهو لا قيمة له .

ومن هنا نلاحظ بداية النقيمة البلاغية للالتفات عند ابن المعتز . ووضعه ضمن نظراته البلاغية ، وذلك اذا ادى غرضا من المعنى ، واتى ابن المعتز لتعزيز ما يقول بامثلة من القرآن الكريم ، وفصيح شعر العرب ، وترك توضيح اسبابه واقامه لذوق القارىء وطبعه السليم .

والذي جعلنا نبدا بابن المعتز ونتجاوز راي الاصمعي (ـ ٢١٦هـ) ، ان الاصمعي علق على التفات جرير ؛ فقد حكي عن اسحاق الموصلي انه قال : قال لي الاصمعي : اتعرف التفات جرير ؟ قلت وما هو ؟ فانشدني :

اتنسى اذ تودعنا سليمى
بعود بشامة سقى البشام

ثم قال : اما تراه مقبلا على شعره ، اذ التفت الى البشام فدعا له فتعليقه على البيت يدل دلالة واضحة على انه وهو في ذلك العصر يعرف الالتفات الذي هام به علماء البديع في العصور الحديثة ، ويكون بذلك استخرجه من شعر الشعراء ، ولكنه لم يضع له تعريفا ، ولم يحدده التحديد النهائي(٢٧) .

ومن هنا عددنا ابن المعتز بداية الحديث عن الالتفات وقيمته في البلاغة العربية وان اشار الى ذلك الاصمعي في تعليقه على التفات جرير .

قدامة بن جعفر (ـ ٣٣٧هـ) :

ثنينا للحديث عن الالتفات بقدامة بن جعفر ؛ لانه من اقرب البلاغيين الذين ساروا على نهج ابن المعتز (ـ ٢٩٦هـ) ، في فهم الالتفات وقيمته البلاغية ، ثم خطا خطوة بعد ابن المعتز في باب الالتفات ، وهي شرح الأمثلة التي عرضها ، مع انه لم يورد اي مثال على الالتفات من القرآن الكريم ، كما فعل ابن المعتز ، لهذا جعلنا حديثنا عنه لانه ـ فيما نعتقد ـ اول من عرض امثلة للالتفات من غير القرآن الكريم .

ويعتبر قدامة الالتفات من نعوت المعاني(٢٨) ، اذ يقول : ومن نعوت المعاني : الالتفات : وهو ان يكون الشاعر آخذا في معنى وكانه يعترضه شك او ظن ان ردا يرد عليه قوله او سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا الى ما قدمه ، فاما ان يذكر سببه او يحل الشك فيه .

نلاحظ من هذا التعريف قيمة الالتفات من الناحية المعنوية وصلتها بالنفس الانسانية ، من افتراض السائل في سؤاله ، وتقديم الجواب عن السؤال او احلال الشك مكانه ، بهذا نرى ان قدامة يثبت لازمة المعنى وصلتها بالنفس في مفهوم الالتفات ، ويؤكد ذلك بشرح الامثلة التي يوردها ، ومن ذلك قوله على لسان المعطل في بني رهم من هذيل(٢٩) :

---

(٢٢) ديوان ابي تمام : ٢ : ١١٠ ، تحقيق : محمد عبده عزام دار المعارف بمصر ط٢ .

(٢٤) شرح ديوان جرير : ٢٠٤ ، تاليف : محمد بن اسماعيل عبدالله الصاوى ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ط١ .

(٢٥) وردت في الكتاب ص ٥٨ ، الكلمة (نناءه) ، والصواب ، ما اثبتناه وهي (ثناؤه) .

(٢٦) الحسن بن رشيق (ـ ٤٦٣هـ) ـ العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده ٢ : ٦٤ ، تحقيق/محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، سنة ١٩٧٢ م .

(٢٧) الصور البديعية : ١ : ١١١ .

(٢٨) قدامة بن جعفر (ـ٣٣٧هـ) ـ نقد الشعر ـ ١٥٠ تحقيق: د . محمد عبدالنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الازهرية بالقاهرة ، ط١ ، سنة ١٩٧٩ م .

(٢٩) ديوان الهذليين٢ : ٧) ، نسخة مصورة عن طبعةدار الكتب المصرية ،الدار القومية للطباعة والنشر ،بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م .

تبين صلاة الحرب منا ومنهم
اذا ما التقينا والمسالم بادن

فقوله : « بادن » رجوع من المعنى الذي قدمه حين بيّن ان علاقة صلاة الحرب ان المسالم يكون بادنا والمحارب فارا و « البادن » هو « السمين » .

ان الامثلة الشعرية التي استخدمها قدامة كانت في مجموعها ستة ، وهي : للمعطل من بني رهم من هذيل ، وللرماح بن ميادة ولعبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر ، ولامرىء القيس ، ولطرفة ولجرير بن ربمان .

يلاحظ على هذه الاسماء التي اختار لها قدامة انها متميزة ، وهذا الاختيار في الاسماء ، والتنوع في الشواهد يبرز اثر قدامة النقدي في عرضه لموضوع الالتفات . واختيار المرء جزء من عقله(٤٠) .

من هذه المسيرة للالتفات ، يبدو ان ابن المعتز وقدامة ما اولياه هذا الاهتمام ، وما جعلاه ضمن دراساتهم ، الا لقيمته البلاغية المتصلة بالنفس وخلجاتها ، المؤدية الى خدمة المجتمع ، المتحدثة عن امور الحياة العامة والخاصة(٤١) .

ابو هلال العسكري (ـ ٣٩٥هـ) :

يبدا ابو هلال العسكري حديثه عن الالتفات في اقسامه على غير ما بداه ابن المعتز ، وقدامة ، اذ بدا في تعريفه ، يقول ابو هلال : (الالتفات على ضربين ، فواحد ان يفرغ المتكلم من المعنى ، فاذا ظننت انه يريد تجاوزه يلتفت اليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به) .

وينقل ابو هلال عن ابي احمد العسكري ، عن يحيى الصولي عن ابي العيناء قولا عن الاصمعي (ـ ٢١٦هـ) : اتعرف التفات جرير ؟ قلت : لا ، فما هو ؟ قال

انسى اذ تودعنا سليمى
بعود بشامة سقي البشام

الا تراه مقبلا على شعره ، ثم التفت الى البشام ، فدعا له .

وبهذا ينقل لنا ابو هلال رايا متقدما للاصمعي في معنى الالتفات ، وتعليق الاصمعي على التفاتات جرير ، عبارة عن نقد ذوقي غير معلل ، اذ يقول : بعد الذي تقدم . وقوله : (اي جرير) :

طرب الحمام بذي الأراك فشاقني
لازلت في غلل وأيك ناضر

فالتفت الى الحمام ، فدعا له .

يبدو ان الاصمعي الناقد العربي ، قد احتفل بالتفات جرير لانه ينتقل في حديثه عن شعره من جزء الى اخر ، ويقبل عليه مهتما به من ناحية الى اخرى . لان الشعر بالنسبة للشاعر وانتسابه اليه وحرصه عليه ، يعدّ معلما اصيلا ، وصلة قوية كتلك التي بين الاب وابنائه ، على حدّ تعبير ابي تمام الشاعر (ـ ٢٣٢هـ) ، ثم ينتقل جرير من اقباله على شعره ، الى الدعاء للبشام(٤٢) ثم الدعاء للحمام ، وهذه معان انسانية تصل بين الشاعر وبين نفسه ومظاهر الطبيعة من الشجر والطيور ، وهذا ما يسمى في العصر الحاضر عند النقاد المحدثين : باستلهام الطبيعة وتشخيصها ، اي محاكاتها ، وكانها شخص يعقل ، وهذا يسمى عند البلاغيين العرب ، تنزيل غير العاقل منزلة العاقل ، لنكتة بلاغية ، ومقصد نفسي ، واداء معنوي مفيد .

يلاحظ ان ابا هلال العسكري في حديثه عن الضرب الثاني من الالتفات ، ينقله تقريبا من قول قدامة الذي اشرنا اليه سابقا ، واليك القول ، لتوازن بينهما : (والضرب الآخر ان يكون الشاعر آخذا من معنى وكانه يعترضه شك ، او ظن ان رادا يردّ عليه قوله ، او سائلا يساله عن سببه ، فيعود راجعا الى ما قدمه ، فاما ان يؤكده ، او يذكر سببه ، او يزيل الشك عنه ، ومثاله : قول المعطل الهذلي :

تبين صلاة الحرب منا ومنهم
اذا ما التقينا والمسالم بادن

يعتمد ابو هلال اغلب الامثلة التي اوردها قدامة ، ولكن ابا هلال يشير الى معنى « الاخذ » عندما يعرض الى قول طرفة ، وهذه الاشارة جديدة في باب الالتفات ، اذ يدخل الذوق النقدي في علاج القضايا البلاغية ، وهذا معلم من معالم اتصال البلاغة بالنقد في مراحله الاولى ، وننقل مثالا يوضح ما لاحظناه :

---

(٤٠) الصناعتين : ٩ .
(٤١) البديع : ٥٨ ـ ٥٩ ، نقد الشعر : ١٥٠ ـ ١٥٢ .
(٤٢) الصناعتين : ٤٠٧ ، البشام : شجر ذو ساق واغصان وورق ولا ثمر له .

وتصـد عنـك مخيلة الرجل الثـ
روف موضحـة مـن المظـم
بحـام سيفك او لسانك والـ :
كلـم الاصـيل كارغب الكلـم

فكانه ظن ان معترضا يقول له : كيف يكون مجرى اللسان ، والسيف واحدا ، فقال : «والكلم الاصيل كارغب الكلم » وانما اخذه من امرىء القيس وجرح اللسان كجرح اليد(٤٣) واخذه آخر ، فقال :

والقول ينفـذ مالا تنفـذ الابـر(٤٤)

وانظر ماذا يعلق قدامة على ابيات طرفة ؛ لترى التأثير والتاثر ، بين قدامة وابي هلال (فكانه لما بلغ بعد «حسام سيفك او لسانك» قدر ان معترضا يعترضه ، فيقول : كيف يكون مجرى السيف واللسان واحدا ، فقال : والكلم الاصيل كاشد الجراح واكثرها اتساعا)(٤٥) .

وخلاصة ما تقدم ان ابا هلال العسكري ، قد اورد الالتفات في كتابه الصناعتين في الفصل العشرين من الباب التاسع ، وهو في شرح البديع(٤٦) ، وتحدث عن ضربين من ضروبه وفي اثناء ذلك يشير الى اخذ طرفة من امرىء القيس ، واخذ غير طرفة هذا المعنى ، ثم نلاحظ ان جميع الامثلة التي ضمنها العسكري موضوع الالتفات ، من الشعر الفصيح. في ضربين ، الضرب الاول في اربعة امثلة شعرية ، والضرب الثاني في ثلاثة .

وبهذا يكون وجه التمييز بين ابن المعتز (ـ ٢٩٦ هـ) ، وقدامة (ـ ٣٢٧ هـ) ، وابي هلال العسكري (ـ ٣٩٥ هـ) في عرض موضوع الالتفات وقيمته في البلاغة العربية واسلوبه بين التراث ونظرات المعاصرين النفسية والسلوكية والنقدية.

ابن رشيق(ـ٤٦٣ هـ) :

في حديث ابن رشيق عن الالتفات نظرات نقدية اوضح من نظرات ابن المعتز وقدامة وابي هلال العسكري ، والجديد في عرضه للالتفات ، انه اورد اكثر من راى في تعريف الالتفات ، وكانه الم بما قيل قبله عن البلاغيين العرب ، ثم مناقشة هذه الآراء والنماذج التي اوردها .

ففي حد الالتفات وتعريفه يورد ، راى قدامة، اذ يقول : (باب الالتفات وهو الاعتراض عند قوم ، وسماه آخرون : الاستدراك ، حكاه قدامة)(٤٧)

كان ابن رشيق يؤيد ابن المعتز في معنى الالتفات والاعتراض ، وهو لذلك يعلق على انشاد ابن المعتز لقول جرير :

طرب الحمام بذي الاراك فهاجني
لازلت في غلـل وايك ناضر(٤٨)

لم يعد ابن المعتز الا ما كان من هذا النوع والا فهو اعتراض كلام في كلام ، وقد احسن ابن المعتز في العبارة عن الالتفات بقوله : « هو انصراف المتكلم من الاخبار الى المخاطبة ، ومن المخاطبة الى الاخبار » .

ومن مواقف ابن رشيق النقدية في باب الالتفات ذوقه الادبي الذي يعينه على توضيح قيمة هذا الباب البلاغي ، يورد ابن رشيق بيت النابغة :

الا زعمت بنو عبس بانـي
الا كذبوا كبير السن فاني(٤٩)

فقوله ـ الا كذبوا ـ اعتراض ، ورواه آخرون للجعدى الا زعمت بنو كعب ، وهو اشبه بالجعدى لانه اعلى سنا منه ، فقوله ـ الا كذبوا ـ اعتراض وكذلك ما يجري مجراه .

ولا اظن ان ابن رشيق يستطيع الترجيح في ان البيت اشبه بالجعدى من غير ان يعرف مذهب النابغة الذبياني في الشعر ، ونهج الجعدى وخصائصه الفنية في شعره . وبهذا القول ، يتجلى ذوق الناقد في الحديث عن باب الالتفات ، ويضاف الى ذلك ما اشرنا اليه من استحسان راى ابن المعتز في التفريق بين الالتفات والاعتراض .

ويضم الى ما تقدم حسن اختيار ابن رشيق ، لامثلته التي اختلفت وزادت عن امثلة ابن المعتز وقدامة والعسكري ، ثم تعليقه عليها بلفتات ذوقية اذ يقـول : ومن مليح ما سمعته ، قول نصيب :

---

(٤٢) وصدره : ولو عن ثنا غيره جاءني ، ديوان امرىء القيس : ١٨٥ ، تحقيق : احمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، (ط) .
(٤٤) الصناعتين : ٤٠٨ .
(٤٥) نقد الشعر : ١٥١ .
(٤٦) الصناعتين : ٢٧٢ .
(٤٧) العمدة : ٢ : ٤٥ .
(٤٨) المصدر السابق : ٢ : ٤٦ .
(٤٩) ديوان النابغة :ص١٢٥ ،شرح وتحقيق :كرم البستاني دار صادر ، بيروت ، سنة ١٩٦٠ .

وددت ولـم أخلق من الطير انني
اعـار جناحـي طائـر فاطـير

فقـوله : ـ ولم اخلق من الطير ـ عجب ؛ ولمـا سمعت التي قيل فيها هذا البيت تنفسـت تنفـا شـديدا ، فصاح ابن ابي عتيق : اوه قد والله اجبته باحسن من شعره ، والله لو سمعك لنعق وطار فجعله غرابا لسواده(٥٠) .

واستملاح ابن رشيق لهذه الصورة الشعرية التي تبدت في ابرز مظاهرها بالالتفات ، شهادة قوية لفهم ابن رشيق في ضوء المناسبة التي هي من نتاج المعنى القائم بين الشاعر ومحبوبته . وهذا فهـم جديد للالتفات عن ابن رشـيق اذ لا يقصره على المعنى الجزئي الذي يجيء عليه في الابيات الشعرية بل لابد لهـذا الالتفات الجيد من ربطه بالسـياق العام ، والمناسبة العامة ، التي تعين على الفهم المتكامل ، وكان الالتفات عند ابن رشيق يفهم في اطار المعنى الكلي ، لا الجزئي . وهذه احدث نظرة للمعرفة ؛ اذ الجزء يؤدي الى فهم الكل ، والكل يضفي معنى جديدا على الجزء ، والنظرة الكلية من احدث نظرات التعلم في ميزان التربية وهي ماتسمى بطريقـة الجشطالت او الكلية .

وخلاصة ذلك ان ابن رشيق يجعل الالتفات وقيمته البلاغية في ضوء المناسبة العامة للنص ؛ من خبايا البيئة النفسية والاجتماعية ؛ وهذا اقصى غاية يمكن ان تلحق فن الالتفات وقيمته في البلاغة العربية .

ويلاحظ على الامثلة التي اوردها ابن رشيق انهـا من الشـعر الفصـيح ، والقرآن الكـريم .

ابو يعقوب السكاكـي (ـ ٦٢٦ هـ) :

تحدث السـكاكي عن الالتفات في القسم الثالث من كتابه « مفتاح العلـوم » في موضعين ، الاول : عندما عرض لعلم المعاني(٥١) ، والثاني : عندما تحدث عن المحسنات المعنوية في آخر علم البيان(٥٢) ، ولهذا لم تكن محسنات الكلام بقسميها المعنوي واللفظي ، قد سماها السكاكي باسم علم البديع ؛ كما وسم المعاني والبيان باسم علمي المعاني والبيان ، والحقيقة ان كلمة (علم البديع) لم ترد على لسان السـكاكي في كتابه المفتاح(٥٤) ، وانما الذي ورد قوله : (واذ قد تقرر ان البلاغة بمرجعيها وان الفصاحة بنوعيها مما يكسـو الكلام حلة التزيين ويرقيـه اعلـى درجـات التحسين ، فها هنا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكـلام ، فلا علينا ان نشير الى الاعرف منها وهي قسمان : قسم يرجع الى المعنى ، وقسم يرجع الى اللفظ(٥٥)) .

ولو حاولنا ان ننقل كلام السكاكي عن الالتفات عندما ضمه الى علم المعاني ؛ لاحقناه يقول :(واعلم ان هذا النوع: اعني نقل الكلام عن الحكاية الى الغيبة لا يختص المسند اليه ولا هذا القدر ، بـل الحكايـة والخطاب والغيبة ثلاثتها ينقل كل واحد منها الى الآخر ويسـمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعاني والعرب يستكثرون منه ، ويرون الكلام اذا انتقل من اسلوب الى اسلوب ادخل في القبول عند السامع ، واحسن تطرية لنشاطه واملاء باستدرار اصغائه وهم احرياء بذلك(٥٦))

والسكاكي همه ان يفرد الحديث عن الالتفات ، لذا نراه لا يهتم بالالتفات الا اذا اتصل بالمعاني ، ولهذا ضمه في المرة الاولى الى علم المعاني ، وفي المرة الثانية الى المحسنات المعنوية(٥٧) . ويذكر السـكاكي مـن المحسـنات المعنوية ، ومنه اي من القسـم الثاني من تحسين الكلام ؛ الالتفات ، وقد سبق ذكره في علم المعانـي(٥٨) .

مع اهتمام السـكاكي بالالتفات وربطه بالمعاني المفيدة ، نراه يردفه بالاسـاليـب ، وهذه الاسـاليب ينبغي ان يتوافر فيها النظم السـليـم ، والعـلاقات الصحيحة بين جزئياتها .

حتى يكون الالتفات مفيدا مؤثرا ، شائقا للنفس ضمن الاسـاليب ، حاملا المعانـي السـليمة يربطه بالناحيـة النفسيـة ، واثرهـا في بنـاء العـلاقات الاجتماعية بين الناس ، ولذا يورد السكاكي مثلا من

---

(٥٠) العمدة : ٢ : ٤٧ .
(٥١) يوسف السكاكي (ـ٦٢٦هـ) ـ مفتاح العلوم ـ ٩٥ ـ ٩٨ مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ، ط١ ، سنة ١٩٣٧ م .
(٥٢) المصدر السابق : ٢٠٢ .
(٥٣) المصدر نفسه : ٢٠٠ .
(٥٤) نبه الدكتور احمد مطلوب الى ان علم البديع لم يطلق عند السكاكي ، وانما اول من سماه بعلم هو ابن مالك (ـ٦٨٦هـ) ، انظر : البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن، لكمال الدين الزملكاني (ـ٦٥١هـ) ص ١٠ ، تحقيق د. خديجة الحديثي و د. احمد مطلوب ، مطبعة المعاني، بغداد ، ط١ سنة ١٩٧٤ م .
(٥٥) مفتاح العلوم : ٢٠٠ .
(٥٦) المصدر السابق : ٩٥ ، هذا الكلام متاثر به السكاكي من الزمخشري ، انظر : الكشاف : ١ : ٦٤ .
(٥٧) مفتاح العلوم : ٢٠٢ .
(٥٨) المصدر السابق : ٩٥ .

الواقع الاجتماعي عند العرب مصورا بقرى الضيف ، ليقرب للقارىء معنى الالتفات وقيمته في البلاغة العربية ، فيقول : (اليس الاضياف سجيتهم (اي العرب) ونحر المشار للضيف دابهم وهجيراهم لا مزمتايدي الادوار لهم اديما، ولا اباحت لهم حريما، افتراهم يحسنون قرى الاشباح فيخالفون فيه بين اون ولون ، وطعم وطعم ولا يحسنون قرى الارواح ؛ فلا يخالفون فيه بين اسلوب واسلوب وايراد وايراد فان الكلام المفيد عند الانسان ـ لكن بالمعنى لا بالصورة ـ اشهى غذاء لروحه واطيب قرى لها)(٥٩) .

ولهذا لو كان الالتفات بالصورة اي بالشكل خلوا من المعنى ؛ لكان تأثيره اقل ، اما اذا كان الالتفات حاملا معنى ، في طيّ اسلوب ، متوائم الاجزاء ، فهو اشهى غذاء للروح واطيب قرى للنفس .

والصورة بالمفهوم البلاغي عند السكاكي تبدو مقابلة لاصطلاح الشكل في العصر الحاضر مع ان فريقا من المحدثين يرى ان الصورة تضم الشكل والمضمون(٦٠) .

ابن الاثير (ـ ٦٣٧ هـ) :

يلاحظ ابن الاثير في كتابه المثل السائر عندما عرض الى الالتفات انه كان منظم المنهج ، مرتب العرض ، لذا نراه عرض في النوع الرابع من الصناعة المعنوية الى الالتفات، وادار الحديث حول(٦١) قيمته، وانواعه ، بالذوق ، ثم عرض ابن الاثير للعلاقة بين الالتفات والنظم ، وللاتصال بين الالتفات والاسلوب، واخيرا الى مجالاته ، مع اكثاره من الامثلة الشعرية.

ينزل ابن الاثير الالتفات في علم البيان كما فعل في كتابه «الجامع الكبير»(٦٢) اذ يقول: (هذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن واليها تستند البلاغة وعنها يعبر(٦٣) .

وجد الالتفات وحقيقته مأخوذة من التفات

---

(٥٩) المصدر السابق : ٩٥ .
(٦٠) انظر : د . مصطفى ناصف ـ الصورة الادبية ـ مكتبة مصر بالقاهرة ، سنة ١٩٥٨ م : وانظر : الصورة الفنية ، د. نصرت عبد الرحمن ، وانظر : الصورة البلاغية ، د . محمد بركات ابو علي .
(٦١) اذ النوع الاول في الاستعارة : ٢ : ٧٠ ـ ١١٥ ، والنوع الثاني في التشبيه : ٢ : ١١٦ ـ ١٦١ ، والنوع الثالث في التجريد : ٢ : ١٦٢ ـ ١٧٠ ، والنوع الرابع في الالتفات : ٢ : ١٧٠ ـ ١٩١ . المثل السائر .
(٦٢) الجامع الكبير : ٩٨ .
(٦٣) المثل السائر : ٢ : ١٧٠ .

الانسان عن يمينه وشماله ، فهو يقبل بوجهه تارة كذا ، وتارة كذا ... ويسمى شجاعة العربية . وجعل ابن الاثير الالتفات في الكلام لا في المفردات ، وخصه باللغة العربية دون غيرها ، وهو بهذا يجاوز حقيقة اللغات الاخرى وخصائصها الفنية ، اذ الانتقال من صيغة الى اخرى في الكلام موجود في غير اللغة العربية ، وكأني به يريد ان يقول لا تصل مستويات التركيب في الكلام عند البشر من غير العرب الى مستويات الالتفات في الآيات القرانية ، لان كلام البشر من كلام العرب وغيرهم فيه من الالتفات العالي ، الذي لا ينكره احد، ثم دليل آخر يؤيد ما تقول، وهو لم يعرف عن ابن الاثير انه كان يلم باغلب اللغات من غير العربية في عصره . وقد اشرنا فيما تقدم ان اللغات الاجنبية في العصر الحاضر ، قد توافر فيها الالتفات، وهو ما يقارب مصطلح (Irony) اي المفارقة .

اهتم ابن الاثير بالالتفات وجعله خلاصة علم البيان ، وقيمته لا تتمثل في (الانتقال من صيغة طلبا لتوسع في اساليب الكلام فقط ، بل الامر وراء ذلك ، وانما تقصد اليه تعظيما لحال من اجرى عليه الفعل المستقبل ، وتفخيما لامره ، وبالضد من ذلك فيمن اجرى عليه فعل الامر)(٦٤) .

وينقسم الالتفات الى ثلاثة اقسام، الاول(٦٥): في الرجوع الى الخطاب ، ومن الخطاب الى الغيبة ، القسم الثاني(٦٦) : في الرجوع عن الفعل المستقبل الى فعل الامر ، وعن الفعل الماضي الى فعل الامر ، والقسم الثالث(٦٧) : في الاخبار عن الفعل الماضي بالمستقبل ، وعن المستقبل بالماضي .

ويصل ابن الاثير الحديث عن الالتفات بالذوق المدرب ، اذ الانتقال من صيغة الى صيغة مرتبط بالمعنى ، والمعاني متشعبة لا نهاية لها ، وبهذا يربط ابن الاثير الالتفات بالاغراض النفسية والمقاصد الاجتماعية ، اذ يقول (والذي عندي ان الانتقال من الخطاب الى الغيبة ، و من الغيبة الى الخطاب لا يكون لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة امر وراء الانتقال من اسلوب الى اسلوب ، غير انها لا تحد بحد ، ولا تضبط بضابط، لكن يشار الى مواضع منها ليقاس عليها غيرها ، فانا قد رأينا الانتقال من الغيبة الى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب ، ثم رأينا ذلك بعينه ، قد استعمل في الانتقال من الخطاب الى الغيبة ، فعامنا

---

(٦٤) المصدر السابق : ٢ : ١٨٣ .
(٦٥) المصدر نفسه : ٢ : ١٧١ .
(٦٦) المصدر نفسه : ٢ : ١٨٣ .
(٦٧) المصدر نفسه : ٢ : ١٨٥ .

حينئذ ان الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجرى على وتيره واحدة ، وانما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود ، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر ، وانما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترد فيه(٦٨) .

وينطلق ابن الاثير من مفهوم الالتفات وصلته بالاغراض والمعاني الى ان يتحدث عن الالتفات والاسلوب السهل ، لذا نراه يقول : (فانظر الى هذا الموضع ، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الافدام لا تكاد تطؤها ، والافهام مع قربها صافحة عنها)(٦٩) .

ولا يغيب عن بال ابن الاثير ان يشير الى قيمةالالتفات في نسوء النظم ، فيقول : (واعلم ايها المتوشح لمعرفة علم البيان ان العدول عن صيغة من الالفاظ الى صيغة اخرى لا يكون الا لنوع خصوصية ، اقتضت ذلك ، وهو لا يتوخاه في كلامه الا العارف برموز الفصاحة والبلاغة الذي اطلع على اسرارها ، وفتش عن دقائقها . ولا تجد ذلك في كل كلام ، فانه من اشكل ضروب علم البيان ، وادقها فهما ، واغمضها طريقا(٧٠)) .

ولتوضيح ما تقدم نورد هذا المثال: (ومما جاء في الالتفات مرارا على قصر متنيه ، وتقارب طرفيه، قوله تعالى اول سورة بنياسرائيل : « سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

وساذكر ــ اي ابن الاثير ــ ما سنح لي فيه فاقول : (لما بدا الكلام بسبحان ردفه بقوله : « الذي اسرى» اذ لا يجوز ان يقال : الذي اسرينا فلما جاء بلفظ الواحد ، والله تعالى اعظم العظماء ، وهواولى بخطاب التعظيم فينفسه الذيهو بلفظ الجمع استدرك الاول بالثاني، فقال : « انه هو » عطفا على «اسرى» وذلك موضع متوسط الصفة . لان السمع والبصر صفتان يشاركه فيهما غيره ، وتلك حال متوسطة . فخرج بهما عن خطاب العظيم في نفسه الى خطاب غائب .

فانظر الى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الواحدة(٧١) التي جاءت لمعان اختصت بها ، يعرفها من يعرفها ، ويجهلها من يجهلها) .

(٦٨) المصدر نفسه : ٢ : ١٧٣ .
(٦٩) المصدر نفسه : ٢ : ١٧٤ .
(٧٠) المصدر نفسه : ٢ : ١٨٤ .
(٧١) المصدر نفسه : ٢ : ١٧٥ ، ١٧٦ .

مما تقدم نلاحظ ان ابن الاثير قد ربط الالتفات بالمعاني التي تطلبه ، بحيث لا يكون مجتلبا ،ومقحما اقحاما في اساليب الكلام، وقول ابن الاثير «انظر الى هذه الالتفاتات المترادفة في هذه الآية الوحدة التي جاءت لمعان » كانه يشير الى بلاغة القرآن العالية ، التي لا تصل اليها بلاغة البشر ، اذ لا نجد عدة التفاتات متلاحقة لمعان ومقاصد في بيت شعري واحد وقوله « اية واحدة » يدل على بلاغة القرآن من اصغر وحدة من وحداته وهي آية ، هل توجد الالتفاتات بهذا العدد مع هذا المستوى في كلام البشر في اصغر وحدة من وحداته وفي اعلى مثال من كلامهم ، الا وهو : البيت الشعري الواحد ؟ .

اظن ان ابن الاثير لا يعقد الموازنة بين كلام الناس ، وكلام رب الناس ، من اجل الموازنة ذاتها ، لان شروط الموازنة غير قائمة ، بين قدرة الله تعالى وقدرة البشر ، بل الملحظ من هذه الموازنة عرض بلاغة القرآن الكريم ، وابرازها من خلال الالتفات . ثم اظهار عجز البشر امام قول رب البشر .

اما الموازنة فتكون في باب الادب والنقد بين شاعرين ، كما فعل ابو الحسن الآمدي (ــ ٣٧١ هـ) في كتابه(٧٢) « الموازنة » ، وكما فعل القاضي الجرجاني (ــ ٣٦٦ هـ) في كتابه « الوساطة »(٧٣).

او المقارنة بين شاعرين او موضوعين في ادبين مختلفين كما عقدت بينالبحتري ولامارتين في وصف البحيرة .

في اثناء دراستنا لموضوع الالتفات عند ابن الاثير ، لاحظناه يعترض على الزمخشري ، اذ يقول : وقال الزمخشري .... رحمه الله . ان الرجوعمن الغيبة الى الخطاب انما يستعمل للتفنن في الكلام ، والانتقال من اسلوب الى اسلوب تطرية لنشاط السامع ، وايقاظا للاصغاء اليه ، وليس الامر كما ذكره(٧٤)) .

ثم يوضح ابن الاثير كيف ينبغي ان يكون

(٧٢) الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ،تحقيق السيداحمد صقر ، دار المعارف بمصر ، ط٢ ، سنة ١٩٧٢ م .
(٧٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، تحقيق وشرح : محمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلبي بالقاهرة (؟) .
(٧٤) المثل السائر : ٢ : ١٧١ ، ١٧٢ .

الكلام ، ولا نريد للرد الذي(٧٥) سيقوم به العلوي (ـ ٧٤٩ هـ) في كتابه « الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز »(٧٥) على ابن الاثير اذ ينتصر للزمخشري ، باعتبار العلوي و الزمخشري (ـ٥٣٨هـ) من المعتزلة .

ابن ابي الاصبع المصري (ـ ٦٥٤ هـ) :

تمشياً مع المنهج التاريخي في عرض موضوع اسلوب الالتفات بين التراث والمعاصرة ، وصلنا الحديث براي ابن ابي الاصبع ، وان كنا قد ضمنا حديثنا عن الالتفات عند ابن الاثير ببداية رد للعلوي؛ وسنورده ـ ان شاءالله ـ بعد راي ابن ابي الاصبع.

ينقل ابن ابي الاصبع في باب الالتفات ، اقوال قدامة بن جعفر ، وابن المعتز ، دون تعليق ، بل يلخصها ، ثم يزيد نوعا من الالتفات لم يذكراه ، ابن المعتز وقدامة ، اذ يقول : (وفي الالتفات نوع غير النوعين المتقدمين ،وهو ان يكون المتكلم اخذا في معنى فيعبر فيه الى نوع يفرغ من التعبير عنه على وجه ما ، فيعرض له انه متى اقتصر على هذا المقدار كان معناه مدخولا من وجه غير الوجه الذي بنى معناه عليه فيلتفت الى الكلام ، فيزيد فيه ما يخلص معناه من ذلك المدخل ، كقول شاعر الحماسة :

فانك لم تبعد على متعهد
بلى كل من تحت التراب بعيد

فان هذا الشاعر بنى معناه على ان المقبور قريب من الحي الذي يريد تعاهده بالزيارة ،اذ القبور باقنية البيوت غالبا ، فلما فرغ من العبارة عن معناه الذي قدره على هذا التقدير ، عرض له كان قائلا يقول له: واى قرب بين الميت المدفون تحت التراب والحي ، فالتفت متلافيا هذا الغلط بقوله :

.....
بلى كل من تحت التراب بعيد

كان هذا الشاعر بنى معناه على ان المقبور الى بعد)(٧٦) .

ويفرق ابن ابي الاصبع بين الاختراس والالتفات ، فيقول : (والفرق بين الاختراس والالتفات ان الاعتراض والانفصال يكونان في بيت واحد ، وفي بيتين ، وفي آية ، وفي آيتين ، والالتفات لا يكون فيه الا في بيت واحد ، وآية واحدة(٧٧)) .

وكان هذا التفسير من ابن ابي الاصبع يؤيد قول ابي هلال العسكري ، عندما استحسن قول ابن المعتز في الالتفات وعدم خلط الاعتراض مع الالتفات ، كما حكاه قدامة ، اذ لم يفرق قدامة بين الاعتراض والالتفات كما تقدم .

ولنا تعليق على نقل ابن ابي الاصبع عن قدامة في تعريفه الالتفات، اذ يقول : (فسر قدامة الالتفات بان قال : هو ان يكون المتكلم ... الخ (٧٨)).

والحقيقة ان قول قدامة ادق اذ قال : (الشاعر)(٧٩) بدلا من كلمة المتكلم ، والدليل على ذلك : ان جميع الامثلة التي اوردها قدامة من الشعر ، وانما تصرف ابن ابي الاصبع ، وقوله : « المتكلم » يندرج تحته النثر والشعر ، وقدامة لم يورد في حديثه عن الالتفات غير الامثلة الشعرية(٨٠) .

يحيى بن حمزة العلوي (ـ ٧٤٩ هـ) :

يتفق العلوي مع ابن الاثير في ابراز قيمة الالتفات في البلاغة العربية ، وتبيان منزلته ، اذ يقول : (اعلم ان الالتفات من اجل علوم البلاغة ، وهو امير جنودها والواسطة في قلائدها وعقودها) . ثم يعرض الى معناه اللغوي ، ثم البلاغي ، ويأخذ على الذين قالوا انه : العدول من غيبة الى خطاب ، ومن خطاب الى غيبة ، بل يرى ان المعنى الاصطلاحي للالتفات هو العدول من اسلوب في الكلام الى اسلوب آخر مخالف للأول؛ وبهذا يربط العلوي قيمة الالتفات بموقعه من الاسلوب ، وبلاغته تتبدى في موقعه الحسن في التركيب وهو بهذا يشير الى قيمة الالتفات في ضوء النظم والعلاقات بين الكلم اي في الاسلوب .

وينقل العلوي عن ابن الاثير ، ان الالتفات مخصوص باللغة العربية دون غيرها ، وقد وجهنا القول في هذه القضية عند الحديث عن الالتفات في راى ابن الاثير ،وما كان ينبغي للعلوي ان ينقل هذه القضية من غير ان يشير الى تفنيد فيها ، اذ الالتفات موجود في غير العربية، انما المقصود من كلام ابن الاثير ، هذا النمط العالي من الالتفات الذي يتمثل في القرآن الكريم ، اذ لا يدانيه اي التفات في اي لغة .

ولا يرتاح العلوي لقول ابن الاثير: ان الالتفات من عادة العرب ، واساليبها في الكلام ، اذ يتهم العلوي

---

(٧٥) الطراز : ٢ : ١٣٣ .
(٧٦) تحرير التحبير : ١٢٥ .
(٧٧) المصدر السابق : ١٢٦ :
(٧٨) المصدر نفسه : ١٢٢ .
(٧٩) نقد الشعر : ١٥٠ .
(٨٠) المصدر السابق : ١٥٠ ـ ١٥٢ ، جميع الامثلة شعرية .

ابن الاثير انه زيف هذه المقالة(٨١) ، وقال ابن الاثير هذا التعليل هو مثل عكاز العميان لا يسأل عن علة حاجته اليه(٨٢) .

وينتصر العلوي لراي الزمخشري في فائدة الالتفات ، ويرد على ابن الاثير ، في اعتراضه على الزمخشري ، فيقول : (وما ذكره الزمخشري لاغبار على وجهه ، وهو قول سديد يشير الى مقاصد البلاغة ويعتضد بتصرف اهل الخطاب ، ومن مارس طرفا من علوم الفصاحة لاح له القرب ، ان ما قاله الزمخشري قوى من جهة النظر ، يدري كنهه النظار ويتقاعد عن فهمه الاغمار)(٨٣) .

ويستغرب العلوى من ابن الاثير ، قائلا : (ومن العجب انه ـ ابن الاثير ـ فيما اورده على الزمخشري، وقال : كيف ذهب عنه معرفته مع احاطته بفن البلاغة والفصاحة ،وما درى ان ما قاله خير مما اتى به ابن الاثير ، فان ما اراده الزمخشري معنى يليق بالبلاغة ويزيدها قوة ، وما ذكره ابن الاثير رد الى عماية ، وقول ليس له حاصل . ولا يدرك له نهاية، وما عابه الا لانه لم يطلع على اغواره ، ولا احاط بكنهه ، ودقيق اسراره)(٨٤) .

وانشد العلوي على ابن الاثير عندما اتهم ابن الاثير الزمخشري ، اذ انتصر له العلوى ، لان كلا منهما يصدر عن نوازع ممتزلية ، اما في غير هذه القضية من باب الالتفات ، فيتفق العلوى مع ابن الاثير في عرض الموضوع من حيث هيكله العام ، في تعريفه اللغوي ، والاصطلاحي ، وقيمته في البلاغة العربية ، وضمه الى علم المعاني ، اذ يقول : (فهكذا قال هذا النوع من علم المعاني)(٨٥) ، ويشير العلوي الى اتصال الالتفات بالذوق المدرب ، واهميته في بناء الموقع والاساليب ، ثم يعرض لاقسامه وفوائده وانه اسلوب ممتنع .

ويلاحظ على العلوي اختصار امثلة ابن الاثير ، وهو بهذا يعتبر نفسه ، قد قدم جهدا ، مع اننا نرى ان كثرة الامثلة الجيدة عند ابن الاثير تربي الذوق من الناحية التطبيقية .

ان حديث العلوي عن الالتفات اخذ زاوية اوضح في ابراز قيمته ، والاهتمام به ضمن الموقع ، ثم في اطار الانتقال من اسلوب الى اسلوب ، وذلك لان الالتفات في هذا الفهم (يعم سائر الالتفات كلها)(٨٦)

وفي اثناء قرائتنا لموضوع الالتفات عند العلوي نلاحظ الذوق الادبي الذي يتمتع به في عرض امثلته ومعالجته له ، وهنا يبرز معنى البلاغة باعتبارها فنا ، في مقابل البلاغة باعتبارها علما ؛ اذ البلاغي الذي تمثل البلاغة فنا يعرضها بذوق الاديب ، والبلاغي الذي اتقن البلاغة علما يعرضها بجفاف القواعد وجمود الامثلة، وبهذا نومىء الى معنى البلاغة فنا ، والبلاغة علما .

واخيرا تبرز شخصية العلوي في حديثه عن الالتفات وقيمته البلاغية ، في توجيه الآراء ، والرد على اصحابها ، وفي عرض الموضوع ثم شرطه حسن الالتفات ضمن الموقع والاسلوب ، في دائرة المعنى الجيد ، ثم بتدخله بذوقه الادبي ، كلما وجد متسعا لذلك ، فعند رده على ابن الاثير في انتصاره للزمخشري نراه يقول : (وما به ـ اي ابن الاثير ـ الا لانه لم يطلع على اغواره ولا احاط بكنهه، ودقيق اسراره) ، فيقول بعد ذلك : ولقد صدق من قال:

وكم من عائب قولا سليما
وآفته من الفهم السقيم(٨٧)

خليل بن ايبك الصفدي (ـ ٧٦٤ هـ) :

ربما سال سائل : ما صلة الصفدي بعلوم البلاغة، وخاصة الالتفات: اذ لم يشتهر الصفدي بين رجال البلاغة ، وهذه حقيقة لا جدال فيها . انما الحديث عن الالتفات في راي الصفدي ، لما نثره في ثنايا كتابه « الغيث المسجم في شرح لامية العجم (٨٨) » في تفسير معنى الالتفات من الوجهة النقدية في قضية من القضايا التي شغلت البلاغيين القدامى . واصبحت من القضايا النقدية المعاصرة لاتصالها بالمعاني والاساليب ، وهي ما سميت عند البلاغيين القدامى بـ (حسن التخلص) . لانها انتقال من نوع الى نوع ، والتفات من معنى الى معنى ، ومن غير قطع الصلة فيما يلحقها من تنقل ، والالتفات انتقال وسلوك سبيل بعد سبيل(٨٩) ، ولهذا فان التخلصات نوع من الالتفات ولكن خروجها متصل بمناسبة بين الغزل والوصف او غير ذلك .

---

(٨١) الطراز : ٢ : ١٣١ .
(٨٢) المثل السائر : ٢ : ١٧١ .
(٨٣) الطراز : ٢ : ١٢٢ ، ١٢٤ .
(٨٤) المصدر السابق : ٢ : ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٨٥) المصدر نفسه : ٢ : ١٢١ .
(٨٦) المصدر نفسه : ٢ : ١٢٢ .
(٨٧) المصدر نفسه : ٢ : ١٢٥ .
(٨٨) الغيث المسجم في شرح لامية العجم : ١ : ٢٥٦ ـ ٢٥٩، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ،سنة ١٩٧٥ .
(٨٩) المصدر السابق : ١ : ٢٥٧ :

وعرض الصفدي ـ في اثناء حديثه عن الالتفات ـ الى قضية نقدية ثانية شغلت البلاغيين، وملأت حيزا في آخر كتبهم ، وهي السرقة او الاخذ(٩٠) ، وكان ذلك من خلال شرحه لبيت الطغرائي :ـ

وذي شطاط كصدر الرمح معتقل
بمثله غير هياب ولا وكل(٩١)

وصدر بيت الطغرائي هو بعينه صدر بيت الحريري في مقامته الرابعة والاربعين من قصيدته البائية ، لانه قال :

وذي شطاط كصدر الرمح قامته
صادفته بمنى يشكو من الجدب(٩٢)

ومثل هذا لا يعد سرقة لان المعنى ليس ببديع ولا لفظه بفظيع ، ولا الطغرائي بعاجز عن الاتيان بمثله، بل جرى على لسانه ونسي ان هذا لغيره لعدم الاحتفال بامره ، اذ هو ليس بامر كبير ، وهذا كثير الوقوع للناس ، ولا يسلم الفحول منه ، ولهذا قال اشياخ الادب : ما حفظ المقامات احد ونسيها الا نظم ونثر .

وهذا الفهم من الصفدي لمعنى السرقة ، والتأثر والتاثر ، يؤدي الى ما شغل علماء النفس قديما وحديثا فيما يسمى بنظرة (المعرفة) وموارده ، وما يبقى من معلومات في منطقة الشعور ، ومنطقة اللا شعور ، ويصبح من موروث الشخص الذي يتمثله ويفهمه ، وينتسب اليه ، بعد طول مدة ودربة .

يورد الصفدي معنى الالتفات ، فيقول : (والالتفات عادة البلغاء ، فيلتفتون من فن الى فن ومن اسلوب الى اسلوب على عادة العرب في كلامهم(٩٣)) ، ولهذا نلاحظ ان الالتفات من طرائق البلغاء من العرب لا الاغرار الاغمار منهم ، ولهذا فالالتفات في موطن عال من مواطن الذكاء العربي ، وياتي على سجيتهم ، ولا يخالف طبيعتهم ، ولهذا فان قيمته مرتبطة بغايات مجتمعهم ، وحاجات نفوسهم ، ورغباتهم وميولهم ، وما يغطي من متطلباتهم التي تعارفوا عليها في النفس منفردة ومجتمعة .

ويضم الصفدي « الاقتضاب » الى معنى الالتفات ، كما ضم « التخلصات » الى الالتفات ـ كما تقدم ـ ولهذا نراه يؤكد ارتباط الالتفات بالاساليب والفنون المتنوعة من القول ، شريطة وجود مناسبة بين تلك الاساليب والفنون ، المنتقل منها واليها .

ومعنى ذلك ان الالتفات من فنون العربية المتكررة ، وان هذا الفن لا يتقنه الا البلغاء من العرب ـ كما اشرنا سابقا ـ والاذكياء ممن ملكوا ناصية البلاغة العربية ومهروا اساليب استخدامها .

بهذا يكون الالتفات قد نيط بالمستويات العليا من اساليب العربية وفنونها، ومن هنا اعتبر الالتفات بكثرته سمة العبقرية العربية ومقدرتها الفنية .

وهذا الفهم للالتفات يفسر لنا انتقال الشاعر من غرض الى غرض اخر في القصيدة الواحدة ، وانتقال الكاتب في كتابه من قضية الى غيرها ، مستطردا او شارحا او معترضا او موافقا ، في ابداء رايه ،وظهور شخصيته ،وابراز ذوقه ؛ على ان يبقى خيط شعوري يربط هذه الظواهر بالمحورالاول من الموضوع ، وما يتفرع عنه .

وفي ضوء هذا الايضاح نفسر منهج الجاحظ (ـ ٢٥٥هـ) في كتابه البيان والتبيين اذ ينتقل من الحديث عن الخطابة ورجالها ، ومقاييسها الجمالية وعيوبها ، ولثغة واصل بن عطاءوغيره ، الى ابواب البيان والفصاحة ، ثم الى الحديث عن ابواب اخر ، وعن الصمت والتشادق ، وما قيل في المخاصر والكهان ، والنساك والقصاص ، ثم ما ذكروا من الر للسيف ، اذ يمحو اثر الكلام ، وغير ذلك مما جرى في باقي الكتاب . اذ يكون في هذا الانتقال معنى الالتفات والاعتراض والحجاج والتاييد والرد، مع جميع الابواب التي ذكرها الجاحظ يوجد بينها خيط شعوري يضم شتيتها ، ومناسبة بين موضوعاتها ، ولا يتسنى ذلك الا لصاحب النظرة الثانية ، التي لا تقفز من فقرة الى اخرى ، الا بعد تامل، واعمال فكر، وارهاف روية، اذ يكون الرابط بين الابواب والقضايا والفصول كلمة ، واحياناسياق الموضوع يسلم الى آخر .....

---

(٩٠) انظر على سبيل المثال شرح التلخيص ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر ، سنة ١٩٣٧م .
(٩١) الغيث المسجم : ١ : ٢٥٢ .
(٩٢) شرح مقامات الحريري : ٥ : ١٦٤ ، لابي العباس احمد بن عبدالمؤمن الشريشي ، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم . المؤسسة العربية الحديثة بالفجالة ، القاهرة . (٣) ورد البيت في المقامات كالاتي :
وذا شطاط كصدر الرمح قامته
صادفته بمنى يشكو من العدب
(٩٣) الغيث المسجم : ١ : ٢٥٦ .

ولذا نلاحظ ان في كتاب «البيان والتبيين» وحدة شعورية في كل ما نثره الجاحظ في ثنايا كتابه ، وهو التنقل من موضوع الى موضوع ؛ وهذا التنقل هو من « التخلصات » ؛ والتخلصات من انواع الالتفات ، ولكن خروجها متصل بمناسبة(٩٤) ـ كما تقدم ـ واذا انعدم هذا الرابط او تلك المناسبة بين التخلصات التي هي نوع من انواع الالتفات ، يكون الالتفات قد فقد قيمته البلاغية ، لانه انقطع اتصاله بالمعنى ؛ وبهذا اصبح زخرفا في غير فائدة، وشكلا من غير محتوى .

يضاف الى ما تقدم ان شخصية الصفدى وذوقه ورايه كان بارزا في عرضه «للالتفات» مع ضيق المساحة التي عرض اليه فيها ، الا انه يدلي بدلوه بين الدلاء فيشرح قائلا : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم) ، انتقل من الخطاب الى الغيبة واقول ـ الصفدى ـ انما عدل في الاول من الغيبة الى الخطاب ،لان الحمد دون العبادة ، الا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده ، فكان القارىء توسل الى الاعلى بالادني والى الخطاب بالغيبة)(٩٥) .

ومن لفتات الصفدي الذوقية التي وردت في طي حديثه عن الالتفات ، قوله : وما احسن قول القائل:

حججي عليك اذا خلوت كثيرة :
واذا حضرت فانني مخصوم
لا استطيع اقول انت ظلمتني
والله يعلم انني مظلوم

يربط الصفدى الالتفات بالمعاني القرآنية ، التي تؤدي الى اظهار اعجاز القرآن الكريم ، اذ يقول : (فانظر الى ما اعطى الالتفات في هذه المواضع من المعاني وافادها من الحكم ، فتبارك الله الذي انزل القرآن وجعله معجزا ،نأت غايته عن البشر، وبعدت مرامي معانيه وحكمه عن المعارضة والاتيان بمثله ، او بسورة منه ، تنزيل من حكيم حميد(٩٦)

ان الصفدى متيقظ لما يكتب اذ يعرف ان حديثه عن الالتفات في اثناء شرحه«لامةالعجم» يخرج به عن القصد ، ويلويه عن الغاية ، التي من اجلها انشا كتابه « الغيث المسجم في شرح لامية العجم»، لذلك يلفت الى الآية الكريمة من سورة هود(٩٧) ، (وقيل يا ارض ابلعي ماءك وياسماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) ، وقد تكلم ارباب البلاغة في هذه الآية واكثروا ، قال ابن ابي الاصبع ومارايت فيما استغربت من الكلام كآية استخرجت منها احدا وعشرين ضربا من المحاسن ، وذكرها ثم فسر ذلك وشرحه ، والكلام عليها يطول ها هنا .

وآخر عبارة من حديث الصفدي يقطع بانه لا يريد ان يفرد الحديث عن الالتفات بانواعه وضروبه كما فعل البلاغيون من قبل ، من مثل : ابن المعتز ، وقدامة ، وابي هلال العسكري وابن الاثير وغيرهم ، وانما عرض الى القيمة النقدية والبلاغة والى الفائدة فيه ، ولذلك ينقل راي الزمخشري في فائدة الالتفات وربطه بالفنون والاساليب ، فيقول: (قال الزمخشري والالتفات من اسلوب الى اسلوب ، تطرية لنشاط السامع ، وطلبا للاصغاء اليه . قلت : الا ترى ان الطغرائي لما اخذ في وصف حاله وما هو فيه من النكد وضيق الحال ، كانه اطال على المخاطب في ذلك واحس منه بالملل ، فالتفت الى وصف هذا الصاحب الذي رافقه فانشأ للسامع معنى غير الاول بعث له نشاطا جديدا ، واستانف له اصغاء غير خاف)(٩٨).

الالتفات بين ثلاثة كتب :

لو استقرينا مواطن الالتفات في كتاب « بديع القرآن » لابن ابي الاصبع المصري(٩٩) (ـ ٦٥٤ هـ) ، وكتاب « البرهان في علوم القرآن » لمحمد بن عبدالله الزركشي(١٠٠) (ـ ٧٩٤ هـ) ، وكتاب « الاتقان في علوم القرآن » لعبدالرحمن السيوطي(١٠١) (ـ٩١١ هـ) ، لوجدنا ان جميع الامثلة من القرآن الكريم ، واغلب هذه الآيات مكية ، وقليل منها مدني ، والسمة العامة على هذه الآيات ترتبط بالنفس الانسانية وخلجاتها وتعالج موضوع (بناء العقيدة الدينية والدعوة الى التوحيد ونفي الشرك ، ووضع الاسس العامة التي يقوم عليها المجتمع ، وفضح جرائم المشركين في سفك الدماء ، وذكر قصص الانبياء والامم السابقة ليكون من هذا زجرا لهم حتى يعتبروا

---

(٩٤) (٩٥) المصدر السابق : ١ : ٢٥٧ .
(٩٦) المصدر نفسه : ١ : ٢٥٩ .
(٩٧) الآية : ٤٤ .

(٩٨) الغيث المسجم : ١ : ٢٥٩ .
(٩٩) من ص ٤٢ ـ ٤٥ ، تحقيق : د حنفي محمد شرف ،دار نهضة مصر للطبع والنشر بالقاهرة ، ط٢ .
(١٠٠) ٢ : ٣١٥ ـ ٣٢٧ ـ تحقيق : محمد ابوالفضل ابراهيم ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، بالقاهرة ، ط٢ .
(١٠١) ٢ : ٢٨٩ ـ ٢٩٥ : ، تحقيق : محمد ابوالفضل ابراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بالقاهرة ، سنة١٩٧٥م.

بمصير هؤلاء المكذبين(١٠٢))والايات المدنية التي وردت لا تخرج عن هذه السمة ، التي اتصفت بها الآيات المكية ، اذ تغلب عليها ان تكون قصيرة ذات وقع معين في الاذن والنفس ، تبعث على الرهبة والخشية وتشعر بمعنى الجلال والجبروت(١٠٣) ، ومع ان الغالب على الآيات المدنية البحث في الاحكام والتشريعات المتعلقة بالعبادة والمعاملات والحدود وغيرها ، الا ان الآيات المدنية التي وردت في باب الالتفات في الكتب الثلاثة ــ المتقدمة الذكر ــ التقت مع الايات المكية ، اذا كانت في ذكر الامم والعذاب مع ان الوصف الغالب للآيات المكية ، اذا كانت في ذكر الامم والعذاب ، مع ان الوصف الغالب للآيات المدنية ما كان في حد او فريضة(١٠٤) ، ويكشف عن سلوك المنافقين ، ويفضح الخبيثة ، ويبين خطرهم على الدين والمجتمع ونرى فيه كذلك مجادلة اهل الكتاب ،ومناقشة آرائهم التي تتعارض احيانا كثيرة مع حقائق الايمان والتاريخ(١٠٥)

ولو حاولنا تتبع اهتمامات ابن ابي الاصبع والزركشي والسيوطي ؛ فيالكتب الثلاثة ؛ التي افردوها للالتفات في امثله القرآن الكريم لوجدناهم يهتمون بالقيمة البلاغية من الوجهة النفسية المبينة على الاسلوب الصحيح ، والنظم المستقيم ، خدمة للاعجاز القرآني ، ولنورد نماذج من دراساتهم ، توضح طبيعة فهمهم للالتفات :

يورد ابن ابي الاصبع المصري ، في باب « الالتفات » قوله تعالى (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار) ، اراد سبحانه وتعالى ان يضمن آية التحدي ضربا آخر من الاعجاز باخباره عن وقوع ما لم يقع بعد عجز من العرب عن معارضة سورة من القرآن ، ليكون جريان هذا الخبر الصادق على لسان نبيه ، حتى اذا وقع كان علما على صدقه ، فرد المكذبين ، وثبت المؤمنين ، فقال : (ولن تفعلوا) قبل ان يتم الكلام الاول بقوله : (فاتقوا النار)(١٠٦) .

واضح أن ابن أبي الاصبع قد احتفل بالالتفات في ضوء المعنى ، ضمن الاسلوب ، في طي النظم ، وهذا كله خدمة للاعجاز القرآني ، وبهذا تكون قيمة الالتفات ، مرتبطة بخدمة القرآن الكريم ، وهذه الغاية الاولى التي من اجلها انشا علماء البلاغة العربية تاليفهم في البلاغة ، ولذا نرى ان ابا هلال العسكري يقول في مقدمة كتابه « الصناعتين » : وقد علمنا ان الانسان اذا اغفل علم البلاغة ، واخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله من حسن التاليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الايجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من انحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها الى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها ، وتحيرت عقولهم فيها(١٠٧) .

كان من ضمن ما تحدثنا به عن قيمة الالتفات في البلاغة العربية ، انه موجود في كلام العرب ، ولكنه لا يصل الى مستوى القيمة التي يتمتع بها في القرآن الكريم ، ومن هناكان القران معجزا باسلوبه البياني، مع أن حسن البيان، موجود في كلام العرب، ولكنهم لا يستطيعون الاتيان بمثل ما في القرآن (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله) ، ودليل آخر من خلال دراستنا للالتفات ، يؤكد ان الالتفات في القرآن لا يدانيه الالتفات الوارد في كلام العرب ، وهو ما وقف عليه ابن ابي الاصبع المصري ، اذ يقول : وجاء في الكتاب العزيز من الالتفات قسم غريب جدا لم اظفر في الشعر له بمثال ، هداني الله الى الوقوع عليه ، وهو : ان يقدم المتكلم في كلامه مذكورين مرتين ، ثم يخبر عن الاول منهما ، وينصرف عن الاخبار عنه الى الاخبار عن الثاني ، ثم يعود فينصرف عن الاخبار عن الثاني الى الاخبار عن الاول ، كقوله تعالى : (ان الانسان لربه لكنود وانه على ذلك لشهيد) انصرف عن الاخبار عن الانسان الى الاخبار عن ربه تبارك وتعالى ، ثم قال منصرفا عن الاخبار عن الرب عز وجل الى الاخبار عن الانسان (وانه لحب الخير لشديد)(١٠٨) .

---

(١٠٢) د صابر طعيمة ــ التراث الاسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه ــ ص ٦٠٥ ، دار الجيل ، بيروت ، سنة ١٩٧٩ م .

(١٠٣) د . محمد سعيد رمضان البوطي ،من روائع القرآن، ص ٨٤، مكتبة الفارابي ــ دمشق ، ط٢ سنة ١٩٧٠م .

(١٠٤) البرهان في علوم القرآن : ١ : ١٨٩ .

(١٠٥) التراث الاسرائيلي : ٦٠٥ ، ، ٦٠٦ .

(١٠٦) سورة البقرة ، الاية : ٢٤ .

(١٠٧) الصناعتين : ٧ .

(١٠٨) البديع : ٤٥ .

بعد ان يذكر ابن ابي الاصبع هذا النوع الغريب من الالتفات في القرآن ، يقترح ان يسمى « التفات العلماء » ، ولا يقطع بهذه التسمية ، بل يترك الباب مفتوحا لمن يجيء بعده من العلماء المشتغلين بالدراسات البلاغية والقرآنية ان يسموه ما شاءوا ، اذ يقول : وهذا يحسن ان يسمى التفات الضمائر والله اعلم ، فكلمة يحسن ، فيها معنى الميل لا القطع ، وقوله : والله اعلم اى ان ما وصل اليه يبقى قائما ، مالم يات آخر ، ويحدث فيه جديدا ، لان العلم لا يحيط به انسان .

لا يخرج الزركشي في نظرته الى الالتفات عمن تقدمه من البلاغيين ، اذ يراه نقلا للكلام من اسلوب الى اسلوب اخر تطرية واستدرارا للسامع ، وتجديدا لنشاطه ، وصيانة لخاطره من الملال والضجر ، بدوام الاسلوب الواحد على سمعه(١٠٩)، ويضم الزركشي الالتفات الى المعاني ، ويشترط صلة بين المعنى الملتفت اليه والملتفت منه ، اذ يقول : ان الكلام المتوالي فيه ضمير المتكلم والمخاطب لا يستطاب وانما يحسن الانتقال من بعضها الى بعض ، وهو نقل معنوي لا لفظي .

بهذا الفهم لا يغيب عن الزركشي محافظته على الصلة النفسية بين الالتفات وقيمته البلاغية فيما عرض له من شواهد ، ونظرة الى آية من الايات التي عرض لها توضح ما يقول : (ومالي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون)(١١٠)، الاصل «واليه ارجع» فالتفت من التكلم الى الخطاب ؛ وفائدته انه اخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه ؛ وهو يريد نصح قومه ، تلطفا واعلاما انه يريده لنفسه ، ثم التفت اليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم الى الله(١١١)) وايضا فان قومه لما انكروا عليه عبادته لله ، اخرج الكلام معهم بحسب حالهم ، فاصبح عليهم بأن ؛ يقبح منه انه لا يعبد فاطره ومبدعه ، ثم حذرهم بقوله : (واليه ترجعون) .

ثم نرى السيوطي يلح على الصلة النفسية بين الالتفات وقيمته البلاغية ، ويبرز هذا حول قوله تعالى : (ومالي لا اعبد الذي فطرني واليه ترجعون) ؛ والاصل « اليه ارجع » فالتفت من مثاله من المتكلم الى الخطاب ؛ ونكتته انه اخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه ، وهو يريد نصح قومه تلطفا واعلاما انه يريد لهم ما يريد لنفسه ؛ ثم التفت اليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم الى الله تعالى(١١٢) .

والذي جعلني انقل هذا القول ، ملاحظتنا انه قول الزركشي في كتابه « البرهان » الذي نقلناه آنفا ، وهذا الذي نقله السيوطي ، يومىء الى اتفاق الرجلين (الزركشي والسيوطي) في ربط الالتفات بالمعنى ، واثر ذلك في النفس ، وما يحرزه من فائدة ونكتة في الاساليب والمقامات بين النفوس.

ويورد السيوطي من محاسن الالتفات ما يوضح الاثر النفسي ، ما وقع في سورة الفاتحة : فان العبد اذا ذكر الله تعالى وحده ثم ذكر صفاته التي كل صفة منها تبعث على شدة الاقبال ، واخرها (مالك يوم الدين) المفيد انه مالك الامر كله في يوم الجزاء ، يجد من نفسه حاملا لا يقدر على دفعه على خطاب من هذا صفاته بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة من المهمات(١١٣) .

يلاحظ على الكتب الثلاثة « البديع والبرهان والاتقان » انها اتفقت على اهمية الالتفات وبلاغته ، واجمعت على تنوع اقسامه ، وربط ذلك بالمعنى والاسلوب والنظم والاثر النفسي ، وجماع ذلك كله اسرار الاعجاز القرآني الكريم ، مع هذا وذاك ، فان جميع الآيات القرآنية لم تكن من جميع سور القرآن الكريم كله ، ولهذا نرى من الخيران يتوافر باحث على دراسة ظاهرة الالتفات في القرآن الكريم كله ، وبهذا تكون الدراسة في المواضيع التي تستخدم البلاغة العربية في فهم الاعجاز القرآني ، وتكون صورة من صور النقد العربي .

واخيرا يكون هذا البحث قد عرض الى اسلوب الالتفات بين التراث والمعاصرة وما هذا الا بداية في التوجيه الى دراسة البلاغة العربية في ضوء الحياة الماثلة .

---

(١٠٩) البرهان : ٣ : ٣١٤ .
(١١٠) سورة يس ،الاية : ٢٢ .
(١١١) البرهان : ٣ : ٣١٥ .
(١١٢) الاتقان : ٣ : ٢٨٩ .
(١١٣) المصدر السابق : ٣ : ٢٩٢ .

خاتمـــة

لعل من الغايات والاهداف التي توصلنا اليهامن خـلال دراستنا لاسلـوب الالتفـات بين التـراث والمعاصرة ـ فنيا وتاريخيا ـ هـو ان هذا البحث يعتبر الالتفات جزءا من المعاني في اسلوب متميز ، بوصفه حسنا ذاتيا ، لا عرضيا .

وهذا الفهم يقودنا الى ان اسلوب الالتفاتموطن من مواطن الحديث عن النفس الانسـانية وكوامنها ، وجسر من جسور التعبير عن الاحاسيس والمشاعر من خلال الاثر الادبي ويتصل هذا كله بالتشكيلات البلاغية في تصوير المحاكاة للطبيعـة في مظاهـرها المتنوعة .

ولذا حديثنا عـن الالتفات يكـون في اطـار الدراسات الأسلوبية بين آراء القدامى ونظـرات المحدثين النفسـية والسلوكية والنقدية ، وبهـذا لا نتبدى صورة اسلوب الالتفات واضحة الا فيضوء المناسبة التي هي من نتاج المعنى القائم بين صاحب النص « المتفنن » كما يقول الأستاذ امين الخولي ـ والمستمع أو المتقبل او الملتقي . ومن ذلك يكون فهم أسلوب الالتفات في الاطار الكلي ـ لا الجزئي ـ باعتباره تشـكيلا بلاغيا غير منفصـل عن مشاعر صاحبه وأفكاره .

ولذلك اجرينا الحديث عن الالتفات باعتباره انتقالا في المعنى من اسلوب الى اسلوب او من صورة الى أخرى او من شكل الى آخر ، وانه جزء مهم في نظم الكلام وفنونه وتراكيبه .

ومعنى ذلك ان الالتفات من فنون العربية المتكررة وان هذا الفـن لا يتقنـه إلا البلغاء مـن العـرب ، والاذكياء ممن ملكوا ناصية البلاغة العربية ومهدوا أساليب استخدامها .

وبهـذا يكـون اسـلوب الالتفات قـد نيط بالمستويات العليا من اساليب العربيـة وفنونها . ومن هنا اعتبر الالتفات بكثرته سـمة العبقريـة العربية ومقدرتها الفنية .

WWW.ATTAWEEL.COM